خصائص الشعر في العراق

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فإنه – وإن كان كما قلنا استمرار للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه – أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب وأحداث التاريخ: وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة: فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجاة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء. وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغَلب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد يكون مظهره العراق، لتكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبطر على أهله؛ فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون شخصياً وقَبَليًا ووطنيا ودينياً وسياسياً، ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى على دِمَن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل:

فقائل هذا البيت غياث ابن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبية، وأديب النصرانية وشاعر الأموية، كان أول ما غرزم به من الشعر الهجاء. هجا امرأة أبيه وهو صغير، هجا كعب ابن جميل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع، وعَلق به لقب الأخطل منذ شبَّ لسفاهته. ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد ابن معاوية وهو وَليّ العهد وبين عبد الرحمن ابن حسان الأنصاري تفاؤل

وجدل، فطلب من كعب ابن جميل أن يهجو الأنصار، فتحرج أن يذم قوماً آووا رسول الله ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يشفي من ذلك على الخطر لولا عون يزيد. وبالغ الأمويون في إيثاره وإكرامه، وأمعن هو في النفح عليهم، فناضل الزبير بين بعد الأنصار، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بني بكر وإن كان حَيَّانا عِدّى آخر الدهر

لمناصبتها الأمويين العداء من جهة، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى. ثم ختم بممالأة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته عل وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعي في فصل كتبه عنه: " إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو " فهو يُدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تَغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ يركب فيه متن الشطط و لا يتجاوز به حدود الخلق.

الفرزدق:

وأبو فراس همام ابن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي، نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خُلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه. ثم لج في هجاء الناس حتى استعْدَوا عليه زياداً وإلى العرَاق لمعاوية، فطلبه ففرَّ منه في مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بواليها سعيد ابن العاص من زيادة فأجاره. فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مُنِيَ بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصقلت شعره. وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها

للناس مشغلة، وللسواس مهزلة. وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من جمال وحكمة.

جرير:

وكان جرير ابن عطية الخطَفي التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلهما في الهجاء، ولكنه بدأ بالزجر على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم. وكان خمول عشيرته وضعه أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول مَن نازله وأفحمه غسان السّليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير؛ وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفضَّل الأخطلُ الفرزدقَ على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد ابن عمير إياه، فهجاه جرير. ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعاه الغلبة. وانشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين. وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلق، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشاعران كلٌّ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروي بالموازنة والنقد والحكم، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهاون الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق. فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه

لشرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد ابن هلال، وهو يومئذ في عسكر قطَرى بن الفجاءة، فأتيا فوقها حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دعي إلى المبارزة، فقالا له: الفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة الله! فقالا: نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد. فقال من يقول:

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طي التجار يحضر موت برودا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما.

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعراء ظفراً ونابا مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: " أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرفعوهم، وذموا قوماً فوضعوهم، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم ".

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء:

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب. على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع.

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمجازي، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله في تيم:

وكنت إذا لقيت عبيد تيم وتيما قلت أيهما العبيد!

لئيم العالمين يسود تيماً وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر
قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم حتى يحالف بطن الراحة الشعر

ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استنبح الضيفان كلهم قالوا لأمهم بولي على النار
فتمنع البول شجاً أن تجود به ولا تجود به إلى بمقدار
والخبر كالعنبر الهندي عندهم والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقاس بينها وبين قبيلته في السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يجد بلاغه ومدده، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر لتماسا للغلبة الدنيئة من أقرب طريق. أنظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عمَّيَّ اللذا قتلا وفككا الأغلالا
وأخوهم السفاح ظمأ خيله حتى وردن جبى الكلاب نهالا
فانعق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضلالا
منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازي حاجبا وعقالا

وإلى قوله له:

وقد شددت على المراغة سرجها حتى نزعت وأنت غير مجيد
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم طأطأت رأسك عن قبائل صيد

وإذا عددت بيوت قومك لم تجد بيتاً كبيت عطارد ولبيد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجرى مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيخوخة في الأخطل وحدة الشبيبة في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: " أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني ". وقال في قصيدته النونية التي هجاها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جاريت مطلع الرهان بنا به روق شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو أساسية. ومن تلك الأهاجي المأثور قصيتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه: الأول في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بكر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك ابن مروان وذم خصومه ومطلعها:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير

ومنها:

بني أمية إني ناصح لكم فلا يبين منكم منا زفر
فإن مشهده كفر وغائلة وما يغيب من أخلاقه وعر
إن العداوة تلقاها وإن كنت كالعر يكمن حيناً قم ينتشر
أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقبس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فما يعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضحوا من الحرب إذا عضت غواربهم ويس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سببا للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه. على أنه يستغل أحيانا بعض ما أنكر الإسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه: كقوله في الأنصار برميهم بشرب الخمر:

قوم إذا هدر العصير رأيتهم حمراً عيونهم من المطار

وكقوله في كتيب ابن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرت فيهم المزاء والسكر

* * * * *

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يواري، فاحش الدعابة فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا بتلطف: فهو في هجائه يذكر العورات، ويعلن المحزيات، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بله الفتاة الخفرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هي كل السباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسفوا هذا الإسفاف، فلابد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك. فالخلق العربي القوي قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضور واختلاط العرب بالعجم؛ والوازع الجيني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية؛ والسلطان السياسي يغمض جفنيه، ويضحك ملء شدقيه، من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة. أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية. وربما يأتي كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر ابن لجأ لجرير. وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتن في هذه المعاني افتناناً عجيباً: يردها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحيانا من افتعال الحوادث المضحكة

إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه. وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده هو لا يصدقه الناس، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح، أو جهة المساوئ فيه فيذم، وهو في كلتا الحالين صادق.

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا نسيغه رجولة، فينقض رثاء جرير[1] لامرأته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:

كانت منافقة الحياة وموتها ... خزي علانية عليك وعار

فلئن بكيت على الأتان لقد بكى ... جزعاً غداة فراقها الأعيار

تبكي على امرأة وعندك مثلها ... قعساء ليس لها عليك خمار

وليكفينك فقد زوجتك التي ... هلكت موقعة الظهور قصار

إن الزيارة في الحياة ولا أري ... ميتاً إذا دخل القبور يزار

ورأى الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفه، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد. ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زر حدراء والترب دونه ... وكيف بشيء وصله قد تقطعا

ولست وإن عزت على بزائر ظ ... تراباً على مرسومه قد تضعضعا

وأهون مفقود إذا الموت ناله ... على المرء في أصحابه من تقنعا

---

(1) وهي القصيدة التي مطلعها:

لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار

يقول ابن خنزير بكيت ولم تكن على امرأة عيني إخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، شهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحسن وهوان النفس باعتياد الذم، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحيانا إلى وازع الدين لتشيعه فيتوب عن قرض الشعر، ويكف عن هجاء الناس، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول:

ألم ترني عاهدت ربي وأنني لبين رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجا من في سوء كلام

أو يستجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبي ونفس كريمة، فتسمو معانيه ونعف ألفاظه، كقوله في معاوية قد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا تراثا فيحتاز التراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبة
فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء القليل حلائبه

إلى أن يقول:

وما ولدت بعد النبي وأهله كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وكم من أب لي يا معاويَ لم يزل أغر يباري الريح ما أزور جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن أبوك الذي من عبد شمس يخاطبه

* * * * *

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة. فلا هو صاحب سياسة كالأخطل، ولا صاحب

نحلة كالفرزدق، ولا وارث مجادة كالاثنين، وإنما كان سوقياً تَرْعِيةً رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوباً بهذا القذر. وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق.

كان جرير لعاميته وبيئته، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخطل بالقلف والخنزير والسكر؛ ويقذف البعيث في أمه وهي أمة سجستانيه؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجبير القين، وفي أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس ابن عاصم، ويشهر بقومه في إخفار عمرو ابن جرموز لذمتهم في قتل الزبير، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزيد، كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار.

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار فيعمد إلى نقض الفخر الصلف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع. وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

تجده يقول بعد هذا البيت:

بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وابو الفوارس نهشل

لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عد الفعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضته لها:

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتاً يحمم فينكم بفنائه دنساً مقاعده خبيث المدخل
قتل الزبير وأنت عاقد حبوة تباً لحبوتك التي لم تحلل
وأفاك غدرك بالزبير على منى ومجر جعثكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجان جعثن كالطريق المعمل

ويقول الفرزدق:

حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسابغات إلى الوغي تتسربل

فيجيبه جرير:

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم بعد الزبير كحائض لم تغسل

ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن أردت بناءنا ثهلانُ ذو الهضبات هل يتحلحل؟
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم وإليه كان حِباءَ جفنة ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتانه يتقمل

فيجيبه جرير:

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
وافخر بضبة إن أمك منهم ليس ابن ضبة بالعم المخول
أبلغ بني وقبان أن حلومهم خفت فلا يزنون حبة خردل
أذري بحلمهم الفياش فأنتم مثل الفراش عشين نار المصطلى

ويقول الفرزدق:

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:

دفعـــوا إلـــى كتـــابهن وصـــية فـــورثهن كـــأنهن الجنـــدل

فيجيبه جرير:

أعـــددت للشـــعراء ســـماً ناقعـــاً فســـقيت آخـــرهم بكـــأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وصغى البعيث جدعت أنف الأخطل

حسب الفرزدق أن يسب مجاشع ويعـــد شـــعر مـــرقش ومهلهـــل

فأنـت تلاحـظ أن جريـراً يرغـب فـي الطريـق السـهل، ويطفـئ حـرارة الجـد ببـرودة الهـزل، ويقابـل الكميّ الهـاجم فـي سـلاحه ولأمتـه، وهـو فـي ثـوب المهـرج وبزته وضحكته.

ولجريـر قـدرة بارعـة علـى تتبـع الخصـم فـي حياتـه الخاصـة والعامـة، فيتسـقط أخباره، ويتلقط حوادثه، ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له:

يتـزوج الفـرزدق مـن حـدراء بنـت زيـق ابـن بسـاط علـى حكـم أبيهـا، فيقـول جرير:

يا زيق قد كنت من شيبان في حسب يـا زيـق ويحـك مـن أنكحـت يـا زيـق

أنكحـت ويلـك قينـا فـي أسـته حمـم يـا زيـق ويحـك هـل بـارت بـك السـوق

يـــا رب قائلـــة بعـــد البنـــاء بهـــا: لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

فيقبـل أهلهـا عليـه ويقولـون لـه: ماتـت، كراهـة أن يهتـك أعراضـهم جريـر. فيأتي جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله:

وأقسـم مـا ماتـت ولكنمـا التـوى بحـدراء قـوم لـم يـروك لهـا أهـلا

ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله:

همـــا دلتـــاني مـــن ثمـــانين قامـــةً كما أنقض باز أقتم الريش كاسره

فيقول له جرير:

تـدليت تزنـي مـن ثمـانين قامـة وقصـرت عـن بـاع العـلا والمكـارم

ويضرب الرومي في حضرة سليمان ابن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول به جرير:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ومثل هذا الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة، كصحف الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها، موضوعاً لنقدها ونضالها. وجرير لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة لاذع السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم، ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم أمض وآلم من مثل قوله:

يا تيم إن بيوتكم تيمية قعس العماد قصيرة الأطناب

قوم إذا حضر الملوك وفودهم نتفت شواربهم على الأبواب

وقوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع!

وقوله:

والتغلبي إذا تنحنح للقرى حك أسته وتمثل الأمثالا

وقوله:

فخل الفخر يا ابن أبي خليد وأد خراج رأسك كل عام

لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد دخل على الوليد ابن عبد الملك وعنده عدى ابن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة. قال جرير: التي يقول فيها الله: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: 3 – 4]، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عدي بمثله فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتهت أن تراه فيه، حتى صورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حيلا نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد. فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً. وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم أفترتها؛ فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:

غلبتك بالمفقأ والمعنى وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقأ أو المفقئ قوله:

ولست ولو فقأت عينك واجداً أباً لك إن عد المساعي كدارم

وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله:

بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله:

وأين تقضي المالكات أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وألطفهم مدخلا، وأكثرهم افتنانًا. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان ابن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والعزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الزجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة. فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرا غيرها. كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد الممنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصنوع من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهلين، فيفاخرون بالنسب، ويتكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى يجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن.

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:

أكسع البصرى إن لاقيته ... إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصرى إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه ... وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابغة ... فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج:

شعلت نوى من داره بالإيوان ... إيوان كسرى ذي القرى والريحان

إن ثقيفـــاً مـــنهم الكـــذابان كـــذابها الماضـــي وكـــذاب ثـــان
أمكـن ربـي مـن ثقيـف همـدان إنـــا ســـمونا للكفـــور الفتـــان
حـين طغـى بـالكفر بعـد الإيمـان بالسـيد الغطريـف عبـد الـرحمن
سـار بجمـع كالـدبي مـن قحطـان فقـــل لحجـــاج ولـــي الشـــيطان
يثبـت لجمـع مـذحج وهمـدان فـــإنهم ســـاقوه كـــأس الـــذيفان

وملحقـــوه بقـــرى ابـــن مـــروان

وهـذا النـوع مـن الهجـاء قليـل النفـوق والبقـاء، كثيـر النفـاق والريـاء، لطمـع الشـعراء فـي حبـاء الخلفـاء وإيثـارهم فـي الغالـب سـلامة البـدن علـى سـلامة العقيـدة. ولـيس الهجـاء الحزبـي إلا صـورة مـن صـور الشـعر السياسـي الـذي نفـق فـي هـذا العصـر. ومـا نـزعم بهـذه التسـمية أن الإسـلاميين قـد وقعـوا علـى مـذهب فـي الشـعر جديـد القصـد والغايـة، فـإن مسـاجلة الخصـوم بالشـعر كانـت مألوفـة فـي عصـر الجهالـة مشـروعة فـي عهـد النبـوة؛ إنمـا نقصـد بالشـعر السياسـي طائفـة مـن المعـاني الجديـدة اسـتوحتها خـواطر الشـعراء مـن اخـتلاف الأحـزاب فـي الـرأي، وتنـازع الزعمـاء علـى الحكـم. جـاءت هـذه المعـاني الجديـدة علـى الـنهج القـديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع:

1 – فـي صـورة المـدح المشـوب بـالتحريض والتعـريض كقـول أبـي العبـاس الأعمى:

أبنـــي أميـــة لا أرى لكـــم شـــبها إذا مـــا التفـــت الشـــيع
ســـعة وأحلامـــاً إذا نزعـــت أهـــل الحلـــوم فضـــرها النـــزع
أبنـــي أميـــة غيـــر أنكـــم، والنـــاس فيمـــا أطمعـــوا طمعـــوا.
أطمعتمـــو فـــيكم عـــدوكمو فســـما بهـــم فـــي ذاكـــم الطمـــع
فلـــو أنكـــم كنـــتم لقـــومكم مثـــل الـــذي كـــانوا لكـــم رجعـــوا
عمـــا كـــرهتم أو لـــردهم حـــذر العقوبـــة، إنهـــا تـــزع

وكقول الكميت:

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وأَرمي وأُرمَى بالعداوة أهلها وإني لأوذي فيهم وأؤنب

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتمليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعاً لشرهم، وإما طمعاً في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر.

2 – وفي صورة الهجاء كما مر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل التاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

3 - وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع الرأي، كقول مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:

إليك أمير المؤمنين رحلتها تثير القطا ليلا وهن هجود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:

لأبنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته تم ابن حرب فإنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم واحي بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره.

4 – ثم في صور جدل في رأي أو بيان لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب ابن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية، فقد قال كعب:

أرى الشام تكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا على إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكل يسر بما عنده يرى غث ما في يديه سمينا
وما في علي بمستعتب ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سر ولابد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال:

دَعَنَّ معاوي ما لم يكونا لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علي بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
يرون الطعان خلال العجاج وضرب الفوارس في النقع دينا

همو هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق فقدما رضينا الذي تكرهونا
فقولوا لكعب أخي وائل ومن جعل الغث يوماً سمينا:
جعلتم عليا وأشياعه نظير ابن هند ألا تستحونا؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء:
علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسيط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الإرجاء:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم والمشركون استبوا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحداً في الناس شركا إذا ما وحدوا الصمد

إلى أن قال:

كل الخوارج مخطٍ في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علي وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية. ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسج، نابية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون في الشعر التعليمي. وعلة ذلك أن اتصالها

بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره، أو شعور ممالق، أو قريحة كابية. والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه.

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية، وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج. فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم.

شعر الشيعة:

ورث علي ابن أبي طالب بحكم مولده ومرباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي؛ وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارليل: "أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه. ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلي في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على اعمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية ". ثم سار علي في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق، فما فارق الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدام المال، وإنما أخلص النية للعمرين، ومحض النصيحة لعثمان، وأعذر بالحجة لمعاوية. ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد، ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثراء الرافدين في العراق، فانتشر أمره وانصدعت خلافته، ثم قتل مظلوماً في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخاً داميا للفضيلة المعذبة والنفس المطمئنة

الشهيدة. ثم روت بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا المجد العاثر، فدب الموت للحسن سراً في كاس مذعوفة، وقتل الحسين قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر.

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحي، وافتَنَّت المنايا الرواصد في اختلاج بني علي، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولاسيما الشيعة، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعاً في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة. ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في علي وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهيأ لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم: فإن تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوة وقوة مع الزمن، فضلا عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب، فشعرهم بدأ ولاء صادقاً، ومدحاً خالصاً، وهجاء مراً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليا!

بنو عبد النبي وأقربوه ... أحب الناس كلهم إليا

أحبهم كحب الله حتى ... أجيء إذا بعثت على هويا

فإن يك حبهم رشداً أصبه ... ولست بمخطئ إن كان غيا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن ابن خزيم الأسدي:

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراء
أأجمعكم وأقواماً سواء ... وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية ابن صخر ... مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فاشهد إن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زيادا ... وصخر من سمية غير داني

وقول عبد الله ابن هشام السلولي في يزيد ابن معاوية:

حشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة:

يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بجيل وأرحب
ولا انتشلت عضوين منها يحابر ... وكان لعبد القيس عضو مؤرب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم ... إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتت جمعه ... وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الشرار بعد خيارها ... وجد بها من أمة وهي تلعب!

ويكاد الكميت بن زياد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة. ولما أهدر هشام ابن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التقية في شعره على عادة الشيعة، فقال من كلمة يمدحه فيها:

فـــالآن صـــرت إلـــى أميـــة والأمـــور إلـــى المصـــاير
يـــا ابـــن العقائـــل للعاقـــل والجحـــا جحـــة الأخـــاير
مـــن عبـــد شـــمس والأكـــابر مـــن أميـــة فالأكـــابر
لكـــم الحلافـــة والإلاف بـــرغم ذي حســـد وواغـــر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عد بني العباس نفثات غيظ، وحسرات حزن، وعبرات ألم في شعر السيد الحميري، ودعبل الخزاعي، وديك الجن، ومطيع ابن إياس، وأبي الشيص، والعكوك، وأضرابهم.

شعر الخوارج:

وأما الخوارج – وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج – فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي، والمكابرة في القول، والاشتطاط في الحكم، والتشدد في الدين، والغلو في العبادة، والقسوة في المعاملة، والاعتماد على الحرب. شايعوا عليا وآزروه حتى قبل التحكيم، فقالوا له: حكمت الرجال ولا حكم إلا الله! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، ونقض ما عاهد معاوية عليه. فأبى عليهم ما سألوا، وأوقع بهم يوم النهروان، فزاد ذلك في حنقهم وخلافهم له، فائتمروا به واغتالوه. واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس، فخطأوا بعضا وكفروا بعضاً. ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: " أنضاء عبادة وأطلاح سهر. قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله. فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: " وعجلت إليك رب لترضى ".

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخاليفهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم؛ لأنهم – كما ظنوا – باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية. وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم. وخلوص عقيدتهم، وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أسلس الناس منطقاً، وأروعهم كلاماً، وأمتنهم شعراً. ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول؛ وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما برز الخارجي للخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمنه وصفه للحرب، وولهه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول ابن أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

ألا فتى يحمل عني ثقله!

ومن القصيد قول معاذ ابن جوين يحرض قومه وهو أسير:

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شري نفسه لله أن يترحلا

أقمتم بدار الخاطئين جهالة وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا

فشدوا على القوم العداة فإنها أقامتكم للذبح رأيا مضللا

ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا

فياليتني فيكم على ظهر سابح شديد القصيرى دارعا غير أعزلا

فيارب جمع قد فللت، وغارة شهدت، وقرن قد تركت مجندلا

وقول الطرماح ابن حكيم:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفز فوزة تنجي من النار

والنار لم ينج من لهيها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشاري

أو الـذي سـبقت مـن قبـل مولـده لـه السـعادة مـن خلاقهـا البـاري

وقوله:

وأمسـي شـهيداً ثاويـاً فـي عصـابة يصـابون فـي فـج مـن الأرض خـائف
فـوارس مـن شـيبان ألـف بينـه تُقـى الله نزالـون عنـد الزواحـف
إذا فـارقوا دنيـاهم فـارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

وكقول قَطَرى ابن الفجاءة في يوم دولاب:

فلـم أر يومـا كـان أكثـر مَقْصـعاً يمـج دمـاً مـن فـائظ وكلـيم
وضـاربة خـداً كريمـاً علـى فتـى أغـر نجيـب الأمهـات كـريم
أصيب بـدولاب ولـم تـك موطناً لـه أرض دولاب وديـر حميـم
فلـو شـهدتنا يـوم ذاك وخلينـا تبـيح مـن الكفـار كـل حـريم
رأت فتيـة بـاعوا الإلـه نفوسـهم بجنـات عـدن عنـده ونعـيم

وقلـيلا مـا يجـادل الخـوارج بالشـعر ويقـارعون بالهجـاء، لاعتمـادهم فـي الجـدل علـى الخطابـة، وفـي القـراع علـى السـيف. ومـن هـذا القليـل قـول بعضـهم في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد:

أألفـا مـؤمن فيمـا زعمـتم ويقـتلكم بأسـك أربعـون
كـذبتم لـيس ذاك كمـا زعمـتم ولكـن الخـوارج مؤمنونـا
هـي الفئـة القليلـة قـد علمـتم علـي الفئـة الكثيـرة ينصـرونا

وقول عمران ابن حطان في جاء الإمام:

لله در المـرادي الـذي سـفكت كفـاه مهجـة شـر الخلـق إنسـانا
أمسـي عشـية غشـاه بضـربته ممـا جنـاه مـن الآثـام عريانـا

ومـا حملـه علـى ذلـك إلا أنـه مـن القعـدة لضـعفه عـن الحـرب لكبـر سـنه فجاهد بلسانه.